أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي الحجوجي
ابن عجيبة الحوزي التطواني المالكي
(١١٦٠ ــ ١٢٢٤هـ / ١٧٤٧ ــ ١٨٠٩م)

البحر المديد في تفسير القرآن المجيد

لمؤلفه ابن عجيبة ترجمة كافية في هذا الجزء (صفحة ٢١٤) أشرنا فيها إلى ما لابد منه في سيرته ولادةً ودراسةً وتصوفاً ونشاطاً علمياً في التدريس والتأليف وما تعرض له من محنة، ووفاةً في نهاية المطاف.

وكتابه «البحر المديد» هو رابع كتاب له في مجال التفسير الصوفي الإشاري سبقته تفاسير ثلاثة للفاتحة ابتداء من الصغير إلى الأوسط إلى الكبير ثم إلى البحر الذي جمع في أحشائه مقاصد ما تقدمه من تفاسير الصوفية، ولعله أكبرها حجماً، ومنهجه فيه مرتب مهذب يبدأ أولاً بتفسير أهل الظاهر معتمداً على مشاهير المفسرين كالقرطبي وابن عطية وابن جزي من الأندلسيين، والبيضاوي والثعلبي وغيرهم. ومن تفاسير الصوفية: للقشيري والورتجيبي والتستري. ويستخدم في شرح المفردات اللغوية: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي، ثم يثني بالتفسير الإشاري معبراً بقوله: (إشارة) في كل طائفة من الآيات قد تبلغ العشرين.

والكتاب طبع منه في مصر ثلاثة مجلدات بتحقيق وتعليق أحمد عبد الله القرشي رسلان، وقدم له الدكتور جودة أبو اليزيد المهدي عميد كلية القرآن الكريم بجامعة الأزهر. ونسخه موجودة، كانت بتطوان نسخة جيدة منه في

خزانة الفقيه القاضي البقالي بيعت بعد وفاة ابنه، وبقبيلة الحوز شمال المغرب، مسقط رأس المؤلف، نسخة أخرى بزاوية الخلانجي، وبقبيلة أنجرة مدفن المؤلف ومجمع كثير من حفدته وأسباطه، نسخة. ومنذ سنوات أتى بعض حفدة المؤلف بنسخة إلى تطوان مع بعض مؤلفاته الأخرى وصورها تصويراً سريعاً وباعها في بعض المكاتب واقتناها الناس، ومنها صور بعثت إلى خارج المغرب، رغم رداءة النسخة وخطها وكثرة تصحيفها، وهي التي بيدي الساعة، وهي في أربعة مجلدات ضخمة في كل مجلد نحو خمسمائة صفحة من القالب الكبير كتبت بخط واحد هو خط محمد الحاج الهاشمي بن محمد بن غيلان الحسني، فرغ منها في ٢٦ شوال عام ١٢٦٢هـ، وبالخزانة الحسنية في الرباط نسخة كاملة في أربعة مجلدات تحت رقم ١١١٢١ ز، وأخرى كاملة في ستة مجلدات بخط مغربي معتاد، كتب السِفر السادس منها محمد بن محمد بن زاكور، فرغ منه في رجب ١٢٦٨هـ، وبالخزانة أجزاء من نسخ أخرى مبتورة، من بينها السِفران الأول والثاني من نسخة بخط الفقيه العدل السيد عبد الغفور بن التهامي البناي التطاوني الأندلسي، فرغ منها في ربيع الأول ١٢٤٧هـ. وهذا الناسخ كان ورّاق المؤلف ينسخ مؤلفاته، وكان حسن الخط عارفاً ضابطاً. والمقصود أن الكتاب سائر الذكر، كان مشهوراً متداولاً بين مشايخ الصوفية ولاسيما في شمال المغرب، وقد سمى المؤلف بعض مصادره في النوعين من التفسير في آخره، فقال: وعمدتنا فيه: تفسير البيضاوي وأبي السعود وحاشية شيخ شيوخنا سيدي عبد الرحمن الفاسي (يعني حاشيته على ذي الجلالين) وشيء (هكذا) من تفسير ابن جزي والثعلبي والقشيري، قال: وكان الفراغ من تبييضه زوال يوم الأحد سادس ربيع النبوي عام واحد وعشرين ومائتين وألف على يد جامعه العبد الضعيف الفقير إلى مولاه أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني (كذا، والمعروف عنه كما أشار إليه في فهرسته، أنه كان يتورّع عن هذه النسبة لأنها لم تتحقق عنده) لطف الله به في الدارين آمين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

افتتح المؤلف كتابه بمثل ما قاله في ديباجة تفسيرَيْه للفاتحة: الأوسط والكبير، إلا التحميد والتشهد، ثم قال « واعلم أن القرآن العظيم له ظاهر لأهل الظاهر وباطن لأهل الباطن، وتفسير أهل الباطن لا يذوقه إلا أهل الباطن، لا يفهمه غيرهم، ولا يذوقه سواهم، ولا يصح ذكره إلا بعد تقرير الظاهر. ثم يشير إلى علم الباطن بعبارة دقيقة، فمن لم يبلغ فهمه لذوق تلك الأسرار، فليسلم ولا يبادر بالإنكار، فإن علم الأذواق من وراء طور العقول، ولا يدرأ بتواتر النقول».

هكذا قال، ولعله يشير إلى هدفه الأكبر من هذه المحاولة، وهو تقرير وحدة الوجود وبيانها، وضرب الأمثال لها والاحتجاج لأحقيتها وكونها الحق في باب الإيمان، وأن من لم يعتقدها لا يصح إيمانه، ولا يسلم من شِرْك، هذا مع إعلانه كما ترى، أنها لا تدرَك إلا بالذوق، ولا تفهم بالعبارة، ولا تدفع بالنقل ولو كان متواتراً، وهكذا يحيل هؤلاء الناس جميع المسلمين على مجهول، لتصحيح أهم شيء خلق الإنسان له وهو الإيمان بالله تعالى. وبعد أن أشار المؤلف إلى أن تأليف الكتاب كان بطلب شيخيه: العربي الدرقاوي ومحمد البوزيدي، أحال على تفسيره الكبير للفاتحة للوقوف على المقدمات العشر في علوم القرآن للإلمام بها قبل الدخول في التفسير لاشتمالها على مبادئ علم التفسير وما يتعلق به.

نموذج من كلامه على قوله تعالى من سورة البقرة:

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ أي اليهود القرآنُ مصدِّقاً لما معهم من التوراة، أي موافقاً عليه، وشاهداً له بالصحة، وقد كانوا قبل ظهوره ينتصرون على أعدائهم بالنبي الذي جاء به، فيقولون: اللهم انصرنا عليهم بالنبي المبعوث في آخر الزمان

الذي نجد صفته في التوراة، وكانوا يقولون لأعدائهم من المشركين: قد أطل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرَم، فلما ظهر وعرفوه كفروا به، فلعنة الله عليهم. فوضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على أنهم لُعنوا لكفرهم، فاللام في (الكافرين) للعهد، وهم كفار اليهود، أو للجنس فتكون اللعنة عامة لكل كافر ويدخلون فيها دخولاً أولياً، والله تعالى أعلم.

(الإشارة) ترى كثيراً من الناس إذا ذكر له الأولياء المتقدمون أقروهم وصدقوهم، وإذا ذكر لهم أولياء أهل زمانهم أنكروهم وجحدوهم مع كونهم يستنصرون بأهل زمانهم في الجملة، ويستغيثون بأهل النوبة، وهذه نزعة يهودية آمنوا ببعض وكفروا ببعض، والناس في إثبات الخصوصية ونفيها على ثلاثة أقسام: قسم أثبتوها للمتقدمين ونفوها عن المتأخرين، وهم أقبح العوام، وقسم أقروها قديماً وحديثاً وقالوا: إنهم أخفياء في زمانهم فحرمهم الله بركتهم، وقوم أقروا الخصوصية في أهل زمانهم وعرفوهم وظفروا بهم وعظموهم، وهم السعداء الذين أراد الله أن يوصلهم إليه ويقربهم إلى حضرته، وفي الحكم: سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه، وبالله التوفيق.

وقال بعد تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ من سورة البقرة الآية ١١٥:

(الإشارة) اعلم أن الأماكن والجهات، وكل ما ظهر من الكائنات، قائمة بأنوار الصفات، ممحوة بأحدية الذات، كان الله ولا شيء معه من الأكوان، وهو الآن على ما عليه كان، إذ لا وجود لشيء مع الله ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ محق الآثار بأملاك الأنوار، وامحت الأنوار بأحدية الأسرار، وانفرد بالوجود الواحد القهار، ولله در القائل:

مذ عرفت الإله لم أر غيراً ... وكذا الغيرُ عندنا ممنوعُ

مذ تجمّعتُ ما عرفتُ افتراقاً ... فأنا اليوم واصلٌ مجموعُ

وقال آخر:

فالكل دون الله إن حقَّقْتَهُ عدمٌ على التفصيل والإجمالِ

من لا وجود لذاته من ذاته فوجوده ـ لولاه ـ عين محالِ

وقال صاحب العينية (وهو عبد الكريم الجيلي):

تجلّى حبيبي في مرائي جماله ففي كل مرأى للحبيب مطالعُ

فلما تبدى حسنه متنوّعاً تسمّى بأسماء فهنّ طوالعُ

وقال أيضاً:

فأوصافه والاسم والأثر الذي هو الكون عين الذات وهو الجوامعُ

وقال الششتري:

محبوبي قد عم الوجودْ وقد ظهر في بيض وسودْ

قال بعض السلف: دخلت ديراً فجاء وقت الصلاة، فقلت لبعض النصارى: دلني على بقعة طاهرة أصلي فيها، فقال لي: طهر قلبك عمن سواه وقف حيث شئت، قال: فخجلت منه. ويحكى عن أبي يزيد رضي الله عنه أنه كان يصلي إلى أي جهة، ويتلو هذه الآية. فالوجه عند أهل التحقيق: هو أسرار الذات، وأنوار الصفات، قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص/٨٨] أي كل شيء فَانٍ ومستهلك في الحال والاستقبال إلا ذاته المقدسة، وأنشدوا:

فالعارفون فنوا ولمّا يشهدوا شيئاً سوى المتكبّر المتعالي

ورأوا سواه على الحقيقة هالكاً في الحال والماضي والاستقبالِ

وهكذا ترى المؤلف في مئات المواقف الإشارية يردد هذه النغمات، بمختلف الأساليب والعبارات، حتى يقطع القارئ المتجرد بأنها نوع من الإيغال في التفسير الإشاري والقرمطة في فهم وحيه، وقد مر بك ما يشي بموقف القوم أصحاب الوحدة من الأديان والعبادات، فهذا يصلي إلى أي جهة شاء تالياً:

﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾، وهذا يدخل الدير ويسأل الراهب النصراني عن موضع طاهر يصلي فيه فيجيبه بما يسكته ويخجله لأنه يعتبره غاية العرفان، ولم يدر الأول بأن صلاته باطلة لاستقباله غير القبلة عمداً، والثاني يتلقى المعرفة من راهب نصراني وهذا لا يتأتّى إلا على مذهب أهل الوحدة الذين يعتبرون الأديان كلها صحيحة وصالحة، كما قال ابن العربي الحاتمي في أبياته النونية. ولله في خلقه شؤون. ومن أخبث أقواله في الوحدة بيته السائر:

وما الكلب والخنزير إلا إلهنا وما الله إلا راهب في كنيسة

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.